

پہنچنے علی اکبر علی ندوی

نادر محفوظہ برائے مجلس تحقیقات و نشریات اسلام
یہ نسخہ مجلس سے باہر نہیں جا سکتا

شاعر الاسلام الاکتوبر مجلہ لاقبال

القائد

مطبعہ دارالکتب اسلامیہ لہور

۱۹۵۶

ابو الحسن علي الحسيني الندوي

شاعر الاسلام
الكتور محمد اقبال

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٩٥١

شاعر الاسلام

الدكتور محمد إقبال

ثقافته ومكونات شخصيته، أثره في التعليم والمعلم
والأدب، ورسائله إلى الجيل الجديد والشباب الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شاعر الإسلام

الدكتور محمد إقبال ..
حمياً لله ولساناً له

فهرست مطالب:

ولد محمد إقبال في سيالكوت مدينة في مقاطعة بنجاب سنة ١٨٧٧ م وهو سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير أسلم جده الأعلى قبل مائتي سنة وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوف .
تعلم محمد إقبال في مدرسة انجليزية في بلده واجتاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكلية في ذلك البلد حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ويبعثون فيهم ذوق العلم فأثر في الشاب الذكي كل تأثير وغرس فيه حب الثقافة والآداب الإسلامية ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

الاماتة والطلبة جميعاً وحاز على ثقة وزارة المعارف ، ثم
 سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ م حيث التحق بجامعة كامبرج
 وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد ومكث في
 عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات في
 موضوعات إسلامية أكسبته الشهرة والثقة وتولى في خلال
 تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، ثم
 سافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة ميخ الدكتوراه في الفلسفة
 ثم رجع إلى لندن واشترك في الامتحان النهائي في الحقوق
 وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن
 وتخصص في العليين ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨ م سالماً غانماً
 ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند سكب على تراها دموعاً
 وقال قصيدة افتتاحها بقوله : « إبك أيها الرجل دماً لا دمعاً
 فهذا مدفن الحضارة الحجازية . »

ومن دواعي العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة
 وهو لم يتجاوز اثنين وثلاثين من عمره ، وأقام له أصدقاؤه
 والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفيلسوف
 الإقتصادي السياسي الخاذق في عدة لغات بالحمامة ، لكن
 ما كان هواه في الحمامة فكان يقضى أكثر أوقاته وجل

حضر
 الملازمين

أشبه

ولما قضى وطره من الكلية سافر إلى لاهور عاصمة
 پنجاب وانضم إلى كلية الحكومة حيث التحق بالامتحان
 الأخير في الفلسفة وبرز في اللغة العربية والانجليزية ونال
 وسامين وأخذ شهادة بكالوريا بامتياز ، وفي لاهور اتصلت
 بالأساذ الانجليزي الشهير سرتامس ارنولد صاحب
 كتاب دعوة الإسلام (Preaching of Islam) ورئيس تحرير
 الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالشيخ عبد القادر
 المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد وعضو
 مجلس الهند سابقاً ، وكان أنشأ أول مجلة علمية أدبية في أردو
 اسمها مخزن ، وكان إقبال نظم قصيدته الأولى البديعة
 « جبل هماله » وهي فارسية التركيب الانجليزية الأفكار ونشرها
 الشيخ في مجلته سنة ١٩٠١ م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد
 في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوى في أندية الشعر
 والأدب واجتلمت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع ، وفي هذه
 المدة أخذ محمد إقبال درجة (الماجستير) في الفلسفة بامتياز
 ونال وساماً وعين على أثره أساذاً للتاريخ والفلسفة والسياسة
 في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أساذاً للانجليزية والفلسفة
 في كلية الحكومة التي تخرج منها وشهد بكفائه وغزير علمه

الشيخ
 العلامة

في سنة ١٩٠٤ م في لاهور

عنه في تأليف الكتب وقريض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية وينشد فيها قصائده ، منها قصيدة « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حل بهم وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والاصلاح ، ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية بين فيها تقصير المسلمين وإهمالهم للدين وعدم إلتفاتهم أمر الدنيا تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان وتغنى بهما الأطفال والشبان وحفظهما الرجال والنساء وهما عندهم أشهر من « قفانك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب والمعاني والغرض ، وقال : « النشيد الوطني » وه « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا يزال ترنم بها الحفلات المشتركة الشعبية في الهند والثانية أنشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلية سنة ١٩١٠ م وما يوم حليلة بسر ، فكان لها في نفسية الشاعر أعظم أثر وجرح عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه وهاج هائج

وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والامبراطورية الأوربية وأملاه حزنه ووجدته قصائد كلها دموع حارة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوربيين . وتتجلى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فن قصائده « البلاد الإسلامية » ، رد على « الوطنية » ، و« الدعوة إلى الجامعة الإسلامية » ، إلى شباب الإسلام ، « يا هلال العيد » ، « المسلم » ، « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) ، « محاصرة أدرنه » ، « الصديق » ، « بلال » ، « الحضارة الحديثة » ، « الدين » ، « شكوى إلى الرسول » ، وقد نعى في هذه القصيدة على الزعماء والقادة الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا بريء من أولئك الذين ينجون إلى أوربا ويشدون إليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبداً في حاسباتهم ولا يعرفونك » ، وه هدية إلى الرسول ، وقد قال فيها : إنه حضر عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا وقال إنها لا تليق بمقامك الكريم ، ولكن أنا جئت بهدية وهي زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس .

ثم انفجر البركان الأوربي سنة ١٩١٤ وحدث ما حدث
فانقلب الشاعر ذاعياً ومجاهداً وحكياً وفيلسوفاً يتكهن
بالأخبار ويقول الحقائق وينظم الحكم ويشب من حماسته
نيراناً ويفجر بإيمانه وثقته أنهاراً وجاش صدره وفاض
خاطره وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرر قصائده
منها « خضر الطريق » وفيها قطع ، منها « الشاعر والتجول
في الصحراء » ، « الحياة » ، « الحكومة » ، « الرأسمالية » ،
« الأجير » ، « عالم الإسلام » ، « طلوع الإسلام » وكلها
آية في الشعر والحكمة والحماسة وحقائق الحياة ، أما طلوع
الإسلام فهي بيت القصيد في شعره لا يوجد لها نظير
في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة
١٩٣٤ م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » ، يعني جرس
الثقافة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً وحظي من القبول
ما لم يحظى شعر شاعر وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته وقد ازداد
فكره نضجاً وأفق معارفه اتساعاً وقد انتظمت دعوته
واتضحت رسالته فنشر له عدة كتب بالفارسية وقد اختار
اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردوية وهي اللغة

أزدي التي انتشرت في آسيا ووالإسلامية
الإسلامية التي انتظمت بتكلمها قطران مهمان إيران وأفغانستان
وتفهم في الهند ومخزونها كثير من أهلها وأهل تركستان
وروسيا ، وكتبتان بالأردوية فأما الدواوين الفارسية فهي
« أسرار خوري » ، يعني أسرار معرفة الذات و« رموز بيخودي
(أسرار فناء الذات) و« بياض مشرق » (رسالة الشرق)
في جواب كتاب « جيته » ، « تحية الغرب » ، و« زبور عجم »
و« جاويدنامه » ، و« بس جه بايد كرد أي أقوام شرق »
(ماذا ينبغي أن تعمل الشعوب الشرقية) و« مسافر و« ارمغان
حجاز » (هدية الحجاز) و« بالأردوية » ، « بالجيريل » ، « جناح
جيريل » و« ضرب كليم » (ضرب موسى) وغير هذه الكتب
محاضرات ألقاها في مدراس طبعت باسم - Reconstruction
of Religious Thought in Islam) ومحاضرات ألقاها في
جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون
وعلماء الفلسفة والدين اعتناءاً عظيماً وعلقوا عليها أهمية كبيرة
وترجم أكثر كتبه إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية
والطليانية والروسية ، ومن تولى هذا النقل الأستاذ الإنجليزي
الشهير الدكتور نيكلسن فترجم بالإنجليزية « أسرار خودي »
و« رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات

باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً
لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت
سنة ١٩٣٠م في اله آباد وعرض في خطبته فكرة الباكستان
أول مرة وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب
وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim
Conference) في مؤتمر المائة المستديرة الثاني سنة ٣٢ -
١٩٣١م وجائته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا وأسبانيا
وإيطاليا فزار القطرين الأخيرين والتي في جبريط محاضرات
في الفن الإسلامي وزار مسجد قرطبة وصلى فيه لأول مرة
في التاريخ بعد جلاء المسلمين وذرف على تربته دموعاً
غزارا وتذكر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض
ثمانية قرون واستنشق في جوه وهوامه أريج حضارتهم وشعر
كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين
وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان وظمأه إلى
ذلك . فقال الشعر الرقيق الذي يعد من القطع الأدبية الخالدة
ونظم قصيدة من أبدع قصائده^(١) ، وكان في زيارته لهذه البلاد
موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ وقابله السينيور موسوليني
وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه

(١) ظهر عليه في هذه المحادثة أثر رنجوعه من كابل نظم

طويلا ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال
أفريقية ولكن رفض الشاعر الإسلامي الغيور دعوتها وأبي
أيضا أن يزور جامع باريس وقال إن هذا ثمن بخس لتدمير
دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوربا أقيمت له عدة حفلات
تكريم منها حفلة تكريم أقامها له أصدقائه وأساتذته في جامعة
كامبردج وجامعة لندن وحفلات أقامها جمعية أرسطو
وجامعة روم وجامعة السربون وجامعة جبريط ، والجمع
المسكي في روم ، وفي طريقه إلى الهند عرج على القدس
واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق
قصيدته البديعة ، ذوق وشوق ،

وفي سنة ١٩٣٢ لبي دعوة السلطان الشهيد نادر خان ملك
أفغانستان في بعثة تتألف من فقيه العلم والشرف سر راس
مسعود حفيد سر سيد احمد خان وعميد جامعة عليكرة الإسلامية
والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدث إليه الملك
الفقيه طويلا وأفضى إليه بذات صدره وبكيا طويلا ، ولما
زار قبر السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند والحكيم ستاني
لم يملك عينيه وافتضح باكيا وعلى أثر رنجوعه من كابل نظم
منظومته ، مسافر ،

دا...
(٣) انظر في...

العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال

~~وأراؤه في التعليم والعلوم والجيل الجديد~~

سادق وإخواني ! يسرني جداً أن أتحدث إليكم عن
شاعر الإسلام العظيم وحكيم الشرق الدكتور محمد إقبال ،
وزيدني سروراً واغتياباً أن يكون هذا الحديث في مركز
تعليمي وأدبي كبير كمدار العلوم وبهذه المناسبة سيدور حديثي
اليوم حول دراسة هذا الرجل العظيم والمدارس التي تخرج
فيها ^{أرائه} ونظراته في التعليم والمتعلمين والثقافة والمتفهمين ^(وجراء)
والجيل الجديد .

المدرسة الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرج محمد إقبال في مدرستين ، أما المدرسة الأولى
فهى مدرسة الثقافة العصرية والدراسات العربية ، فلم يزال
يتقلب في فصولها ودروسها ما بين الهند والإنجلترا والمساكن ،
ويقرأ على أساتذتها البارعين ويرتوى من مناهلها حتى أصبح

من ^{أدب} معاصرة ألبت في كلية دار العلوم في ٢٠٠٠ م. حادي الثانية
١٣٧٠ هـ الموافق ٢٨/٣/٥١ م .

من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته من فلسفة واجتماع وأخلاق واقتصاد وسياسة ومدنية غاية ما يمكن لغربي متخصص فضلا عن شرقي متطفل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسع في الآداب الانجليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية :

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحد واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ولما فسحا له محل الصدارة العلمية والزعامة الفكرية والعبقرية الإسلامية ولكل منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتمله الإنسان بمجرد الدراسة والتغني في العلوم وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراستها لما زاد على أن يكون أستاذا كبيرا في الفلسفة أو علم الاقتصاد أو في الأدب أو في التاريخ ، أو مؤلفا كبيرا أو محاضرا بارعا في العلوم العصرية أو أدبيا

صاحب أسلوب أو شاعرا مجيدا ، أو محاميا ناجحا في مهنته أو قاضيا في محكمة أو وزيراً في دولة ، وصدوقني أيها الإخوان أن لو كان ذلك لطواه الزمان في من طوى من كبار العلماء والأدباء والشعراء ، والمؤلفين والقضاة والوزراء ، إن الفضل في عبقرية إقبال وخلود آثاره ونفوذه في العقول والقلوب يرجع إلى المدرسة الثانية التي تخرج فيها .

إني لأراكم أيها الإخوان تذهبون كل مذهب في تشخيص هذه المدرسة والاهتمام إلى موقعها ، وإني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ومن المعلمون فيها ؟ فلا شك أنهم من كبار المرين وأعظم الموجهين فقد انتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة وتكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلها لاسرع كثير منكم إليها والتحق بها .

إنها مدرسة ما خاب من تعلم فيها ، وما ضاع من تخرج منها ، إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفن المجتهدين وواضعي العلوم المبتكرين وقادة الفكر والإصلاح المجددين الذين

يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ودراسة ما كتبوا
وشرح ما خلفوا وتعليل ما ألفوا وتأيد ما أثبتوا وتفصيل
ما أجهلوا فيتكوّن من كلتهم كتاب ومن كتبهم مكتبة :

إنها مدرسة ما تُعلّم التاريخ بل تخلّق التاريخ ، وما تشرح
الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار بل تنتج الآثار ،
إنها مدرسة توجد في كل مكان وزمان وهي أقدم مدرسة
على وجه الأرض .

ولا أستحن صبركم أيها الإخوان طويلا ، إنها مدرسة
داخلية تولد مع الإنسان . ويحملها الإنسان معه في كل مكان ،
هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسة أشرف عليها التربية
الإلهية وتمدها القوة الروحية .

قد تخرج محمد إقبال في هذه المدرسة كما تخرج كثير من
الرجال الموهوبين وحدث عنها كثيرا في شعره ورد إليها
الفضل في تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته وصرح
مرارا بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية
وأنه لو لا هذه المدرسة وتربيتها لما ظهرت شخصيته ولما اشتملت
مواهبه ولا انضجت رسالته ولا تفشحت قريحته وقد حدث عن
معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيرا وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فمن يرد الفضل إليه في هذه المدرسة ، الإيمان ، الذي
لم يزل مربيا له ومرشدا ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكيمته ،
وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الحشيب الذي هو
مجرد عقيدة أو تصديق بسيط بل هو مزيج اعتقاد وحب
يملك عليه القلب والمشاعر والعقل والتفكير والإرادة
والتصرف والحب والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام
ورسالته ، قوى العاطفة شديد الإخلاص والإجلال لرسول
الله صلى الله عليه وسلم ، متفانيا في حبه مقتنعا بأن الإسلام
هو الدين الخالد الذي لا تسعد الإنسانية إلا به وأن النبي
صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل والبصير بالسبيل وإمام
الكل ، ويرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته
وتماسكه أمام المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف
إلى الاتصال الروحي بالنبي صلى الله عليه وسلم وحب العميق
له ، ولا شك أن الحب هو خير حاجز للقلب وخير حارس له
إذا احتل قلبا وشغله منعه من أن يغزوه غيره أو يكون
كريشة في فلاة أو يعيبث به العابثون يقول : لم يستطع بريق

العلوم الغربية أن يهر لبي ويعشى بصرى وذلك لأنى
اكتسحت بأمد المدينة، ويقول مكشيت فى أتون التعليم
الغربي وخرجت كما خرج إبراهيم من نار ممرود، ويقول
لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرصدونى ويكمنون لى
ولسكنى لا أخافهم فإنى أحمل اليد البيضاء، إن الرجل إذا
رزق الحب الصادق عرف نفسه واحتفظ بكرامته واستغنى
عن الملوك والسلاطين، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم
وانفادت لى الصعاب فإنى من عبيد ذلك السيد العظيم الذى
تشرفت بوطائه الحصباء فصارت أعلى قدراً من النجوم
وجرى فى إثره الغبار فصار أعقب من العبير .

وفى كتاب « أسرار خودى » ذكر الشاعر مقومات
حياة الأمة الإسلامية والدعائم التى تقوم عليها فذكر منها
اتصالها الدائم بنبيها صلى الله عليه وسلم والتشبع بروحه
والثبات فى حبه، ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اندفع
الشاعر يمدحه وأرسل النفس على سجيتها فقال أياتا لا تزال
تعد من غرر المدائح النبوية والشعر الوجدانى، يقول : إن
قلب المسلم عامر بحب المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو أصل
شرفنا ومصدر نخرنا فى هذا العالم، إن هذا السيد الذى داست

أتمته تاج كسرى كان يرقد على الحصر، إن هذا السيد الذى
نام عبده على أسيرة الملوك كان يبنت ليلالى لا يكتحل بنوم،
لقد لبث فى غار حراء ليلالى ذوات العدد فكان أن وجدت
أمة ووجد دستور ووجد دولة، إذا كان فى الصلاة فعيناه
تهملان دمعاً وإذا كان فى الحرب فسيفه يقطر دماً، لقد فتح
باب الدنيا بفتح الدين، أبى هو وأمى لم تكد مثله أم
ولم تنجب مثله الإنسانية، افتتح فى العالم دوراً جديداً
وأطلع فجرأ جديداً، كان يساوى فى نظرتة الرفيع والوضيع
ويأكل مع مولاة على خوان واحد، جائته بنت حاتم
أسيرة مقيدة سافرة الوجه خجلة مطرقة رأسها فاستجلى النبي
صلى الله عليه وسلم وألقى عليها رداً، نحن أعرى من السيدة
الطائية، نحن عراة أمام أمم العالم، لطفه وقهره كله رحمة
هذا بأعدائه وذاك بأوليائه، الذى فتح على الأعداء
باب الرحمة وقال لا تثريب عليكم اليوم، نحن المسلمين من
الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة نحن غيبض من فيض
واحد نحن أزهار كثيرة العدد واحدة الطيب والرائحة،
لماذا لا أحبه ولا أحن إليه وأنا إنسان وقد بكى لفراقه
الجنح وحننت إليه سارية المسجد، إن تربة المدينة أحب إلى
من العالم كله أنعم بمدينة فيها الحبيب .

ولم يزل حب النبي صلى الله عليه وسلم يزيد ويقوى مع الأيام حتى كان في آخر عمره إذا جرى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه أو ذكرت المدينة على منورها ألف سلام فاضت عينه ولم يملك دمعته، وقد ألهمه هذا الحب العميق معاني شعرية تعجبية منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى: أنت غنى عن العالمين وأنا عبدك الفقير فأقبل معذرتي يوم الحشر، وإن كان لا بد من حسابي فأرجوك يا رب تحاسبي بنجوة من المصطفى صلى الله عليه وسلم فأني أستحي أن أتسب إليه وأكون في أمته وأقترف هذه الذنوب والمعاصي.

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان شديد الاعتماد عليه، يعتقد أنه هو قوته وميزته وذخره وثروته وأن أعظم مقدار من العلم والعقل وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لا تساوى هذا الإيمان البسيط، يقول في بيت: إن الفقير المستمرد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغافلنا في أحشائنا وملكتنا عليه فسكرة وعقيدته وهما: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهنالك علماء وفقهاء الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من الكلمات الخطارية ولسكنه فارون لا يتنفع بكنوزه.

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة وحببه، ومن تتبع التاريخ عرف أن الحب هو مصدر الشعر الرقيق والعلم العميق والحكمة الرائعة والمعاني البديعة والبطولة الفائقة والشخصية الفذة والعبقرية النادرة، وإليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ، وإذا تجرد منه شخص كان صورة من لحم ودم، وإذا تجردت منه أمة كانت قطيعاً من غنم، وإذا تجرد منه شعر كان كلاماً موزوناً مقفى فحسب، وإذا تجرد منه كتاب كان مجموع أوراق وحبراً على ورق، وإذا تجردت منه عبادة كانت طقساً من الطقوس وهيكل بلا روح، وإذا تجردت منه مدينة أصبحت تمثيلاً لا حقيقة فيه، وإذا تجردت منه مدرسة أو نظام تعليم أصبح تقليداً أو تكليفاً لا متعة فيه ولا حافز له، وإذا تجردت منه حياة كلت الطبائع وجمدت القرائح وأجدبت العقول وانطفأت شملة الحياة واختنقت المواهب، هذا هو الحب الصادق الذي يتجلى على الرجل فيصدر منه من روائع الكلام أو خوارق الشجاعة والقوة أو الآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحب الذي أشعل موهبته وفتح قريحته وملك عليه قلبه وفكره وأنساه نفسه واستاعب

الحياة وإغراء الشهوات وبريق المسادة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحب الذي يدخل بين الطين والماء والحجارة والأجر فيجعل منها آثاراً خالدة وتحفة فنية كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب والفن والتأليف والبطولة إلا وورائه عاطفة قوية من الحب .

لقد ضل من زعم أن العلماء يتفاضلون بقوة العلم وكثرة المعلومات وزيادة الذكاء ، وان الشعراء يتفاضلون بقوة الشعرية وحسن اختيار اللفظ ودقة المعاني ، وان المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة وكثرة التأليف والإنتاج . وان المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة واستحضار المادة الدراسية وكثرة المراجع ، وأن المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة وأساليب السياسة والحكمة واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوة الحب والإخلاص لعايتهم إذا فاق أحدهم على الآخر فإنما يفوقه لأن القاية أو الموضوع حل في قرارة نفسه وسرى منه مسرى الروح وملك عليه قلبه وفكره وقهر شهواته واحتجبت فيه شخصيته فإذا تكلم تكلم عن لسانه وإذا كتب

كتب بقلبه ، وإذا فكر ففكر بعقله ، وإذا أحب أو أبغض فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة على الإنسانية جنابة عظيمة إذ قضت على هذه العاطفة التي كانت قوة كبرى ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملاّت فراغها بالنفعية والمادية أو الحب الجنسي والغرام المادى ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم أن هناك حباً للمعاني السامية وجمال معنوى هو أقوى من هذا الحب وأسأت المدرسة العصرية - وأعنى بها نظام التعليم الحديث - إلى الجيل الجديد إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بجرارة الإيمان وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجناد متحرك دائر لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ولا شعور ، ولا أم عنده ولا أمل ، إنما هو دوامة جامدة تديرها يد فاهرة أو إرادة قاسية .

فإذا رأيتم أيها السادة أن شعر اقبال من نوع آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتز له المشاعر وتتوتر له الأعصاب ويجيش له القلب

وتثور له النفس حتى تكاد تحطم السلاسل وتفك الأغلال
 وتمرد على المجتمع الفاسد وتصطدم بالأوضاع الجائرة
 وتستخف بالقوة الهائلة ، شعر إذا قرأه الإنسان في لغة
 الشاعر أحس بأنه قد مر به تيار كهربائي فهزه هزا عنيفا ،
 إذا وجدتم ذلك أيها السادة فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر
 قوى الإيمان قوى العاطفة جيش الصدر فياض الخاطر
 ملتهب الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها
 تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه وتغذية هذه العاطفة
 وتميها وإشعالها .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين
 شخصيته وعقليته فهو أستاذ كسريم لا يخلو منه بيت من
 بيوت المسلمين ، ولعل مصر هي أصدق بلاد الإسلام
 بوجود هذا الأستاذ ولها فيه أوفر نصيب ، ولكن ليس
 الشأن في وجود الأستاذ وكونه يمتناول اليد من تلاميذه ،
 إنما الشأن في معرفته وتقديره وإجلاله والإفادة منه
 وإلا لكان أبناء البيت ورجال الأسرة وأهل الحى أسعد
 بعالمهم وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من

ذلك رأينا أن العالم الكبير والحكيم الشهير والمؤلف العظيم
 ضائع في بيته مهجور في داره يزهد فيه أولاده ويستهين
 بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيعترف
 من بحر علمه ويتضلع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوان
 فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم الذي أثر في عقلية
 إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية . ولكنه
 أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام
 فيه من الاستطلاع والنشوق ما ليس عند المسلمين الذين
 ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار
 وعقار ، وقد وصل هذا المهتدى إليه بشق النفس وعلى
 جسر من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف
 هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور
 كلبس لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه ، أما
 الذين ولدوا ونشأوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون
 إلى كلبس وأصحابه باستغراب ودهشة ، ولا يفهمون معنى
 لما كان يخامرهم من سرور وفرح ، فإنهم لا يجدون في هذا
 العالم شيئا جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، وهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن واستطعامة إياه وقد حكى قصته لقراءة القرآن قال :
 « قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم وكان أبي يراني ، فيسألني ماذا أصنع ؟ فأجيبه بأنني أقرأ القرآن ، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوازي ، وذات يوم قلت له ما بالك يا أبي تسألني نفس السؤال وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ، فقال إنما أردت أن أقول لك يا ولدي إقرأ القرآن كما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتنست ومن درره ما نظمت »

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ويظير في أجوائه ويجوب في آفاقه فيخرج بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وإشراق جديد ، وقوة جديدة ، وكلها تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدى وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقدة ، وجواب الاسئلة المحيرة

وأنه دستور الحياة ، ونبراس الطلقات ، ولم يزل يدعو المسلمين وغيز المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب وفهمه ودراسته والإهتمام به في مشاكل العصر واستفتائه في أزمت المدنية وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للترغيبين للدين ، والمختكرين للعلم ، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرته الوفاة فتقرأ عليك سورة يس لتموت بسهولة ، فوا عجبا قد أصبح الكتاب الذي أنزل لينجلك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة »

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ولا يعدل به تحفة وهدية لأغنى رجل في العالم وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، لذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ونزل ضيفاً عليه أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من «قرآن وقدمها إليه قائلاً : « إن هذا الكتاب رأس مال

أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كل بداية ، وبقوته كان
على فاتح خيبر ، فبكي الملك وقال لقد أتى على نادر خان زمان
وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوته كل باب^١ .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة في نظام تربيته وتكوين
شخصيته هو معرفة النفس والفروض في أعمائها والإعتداد
بقيمتها والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به
غيره في قصيدة يقول فيها : انزل في أعماق قلبك وادخل في
قرارة شخصيتك حتى تسكنشف سر الحياة ما عليك إذا لم
تصفني وتعرفني ، ولكن أنصف نفسك يا هذا واعرفها
وكن لها وفياً ، ما ظنك بعالم القلب هو كله حرارة وسكر
وحنان وشوق ، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال ، إن
ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل
ونعيم راحل ، إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الأفرنج
ولا اختلاف الطبقات . لقد كتبت أذوب حياها ، وتندى
جيبتي عرفاً إذ قال لي حكيم : « إذا خضعت لغيرك أصبحت
لا تملك قلبك ولا جسمك^٢ .

١- في قوله تعالى : « ما ظنك بعالم القلب هو كله حرارة وسكر وحنان وشوق ، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال ، إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل ، إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الأفرنج ولا اختلاف الطبقات . لقد كتبت أذوب حياها ، وتندى جيبتي عرفاً إذ قال لي حكيم : « إذا خضعت لغيرك أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك^٢ .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أن
العبد يسمو بها إلى درجة الملوك بل ويعلوهم إذا كان جريئاً
مقداماً ، يقول في قصيدة : « إن الإنسان إذا عرف نفسه
بفضل الحب الصادق وتمسك بأداب هذه المعرفة انكشفت
على هذا بعد أسرار الملوك ، إن ذلك الفقير الذي هو
أسد من أسود الله أفضل من أسكبر ملوك العالم . إن
الصراحة والجرامة من أخلاق الفتيان ، إن عباد الله الصادقين
لا يعرفون أخلاق الثعالب ، وقد جعلته هذه المعرفة
النفسية والاعتداد لا يقبل رزقا إذا قيد حريته ، يقول
في نفس القصيدة : يا صاح إن الموت أفضل من رزق يقص
من قوادى ويمنعني من حرية الطيران . .

وكان إقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته - في غير صلف
وغرور - فيضن بحريته وكرامته ويربأ بنفسه عن أن
يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة : « لك الحمد يا رب
إذ لست من سقط المتاع ولست من عبيد الملوك والسلاطين
لقد رزقتني حكمة وفراصة ولكنني أحمدك على أني لم أبعهما
ملك من الملوك^٣ ، ويقول مفتخراً : « إني من غير شك
فقير قاعد على قارة الطريق ولكنني غني النفس أي ، وكان
عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة يقول فيها : « إذا لم تعرف

١- في قوله تعالى : « ما ظنك بعالم القلب هو كله حرارة وسكر وحنان وشوق ، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال ، إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل ، إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الأفرنج ولا اختلاف الطبقات . لقد كتبت أذوب حياها ، وتندى جيبتي عرفاً إذ قال لي حكيم : « إذا خضعت لغيرك أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك^٢ .

رازقك كنت فقيراً إلى الملوك وإذا عرفته افتقر إليك كبار
الملوك ، إن الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتل للروح وأنت
غير بينهما إذا شئت اخترت القلب وإذا شئت اخترت البطن ،
ولا شك أن محمد إقبال اختار القلب

لذلك كان يثور إذا جرحت كرامته وامتحن عفته ،
قدم إليه رئيس وزارة في دولة في عيد ميلاد محمد إقبال
خمسة آلاف ربية فرفضها وقال : إن كرامة الفقير تأتي على
أن أقبل صدقة الأغنياء ، وعرضت عليه الحكومة البريطانية
وظيفة نائب الملك في أفريقيا الجنوبية وكان من تقاليد هذه
الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة تستقبل الضيوف
في الولايم الرسمية وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير
عليه بذلك فرفضها وقال : ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة
فلا أقبله لأنه إهانة ديني ومساومة كرامتي .

وقد كان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ
بقوته ومواهبه يعتقد أنه صاحب رسالة ومهمة في هذه الحياة
وليس له أن يضع نفسه محل الشاعر الذي ليست له رسالة
والنظامين الذين يتظاهرون في كل مناسبة ، فإذا أريد منه غير
ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجهها إلى رسول الله

أنا خير

صلى الله عليه وسلم ، أني لأشكو إليك يا سيد الأمم أن
أصدقائي يعتقدون أني شاعر نظام فيقترحون علي اقتراحات ،
ويقول في بيت آخر ، أنا حائر في أمرى يا سيدي رسول الله
إنك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة وهؤلاء
يقولون أرخ لموت فلان وفلان فماذا أفعل ؟

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته
وبما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً وقد عصمت الشاعر
من التيه الفكري والهيام الأدبي ^{الديني} ~~العلمي~~ يصاب بهما أدبائنا ولا
شعرائنا وكتابتنا وعلماننا فينتجعون كل كلاً وهميمون في كل
واد ويكتبون في كل موضوع وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون
كل شخص ، ويظنون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم
ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من
توفيق الله تعالى ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين في الهند
أنه عرف نفسه في أول يوم وقدر مواهبه تقديراً صحيحاً
ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح
في المسلمين وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم والإيمان
برسالتهم والطموح إلى القوة والحرية والسيادة ، كان شاعراً
مطبوعاً حتى لو أراد أو أريد أن لا يكون شاعراً لما استطاع

ولقهره الشعر وغلبه ، كان سائل القرية ، لياض الخاطر ، ملهم المعاني مطاع اللفظ وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان شاعراً فناناً وصناعاً ما عرف له شعراء العصر الإمامة والإعجاز وتأثر بشعره الجوف فها من شاعر ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة والتراكيب والمعاني والأفكار والأغراض ، وهو من أفراد شعراء العالم في التفنن والإبداع وابتكار المعاني وجدة التشبيه والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد إقبال فعصره لا يتخلو من شعراء ولا يتخلو من شعراء مجيدين ، ولكن امتاز بأنه أخضع شاعريته القوية وقوة الأديبة وعبقريته الفنية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعرًا وطنياً ولا شاعرًا المهوى والشباب ولا شاعر الحكمة والفلسفة بل كان صاحب رسالة إسلامية استخدم لها الشعر كما تستخدم للرسائل أسلاك السكر بآه فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نضجات الهواء فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ورائد حكمته يسبقها ويوطئ لها أكتافاً ويدلل لها صعباً ويفتح أبواباً وكان شعره من جنود الإسلام — ولله جنود

السموات والأرض — ولا أعرف أحداً أرضى الله ورسوله بشعره بعد حسان بن ثابت رضى الله عنه ، مثل ما أرضى هذا الشاعر المسلم ، فأيقظ أمة وأشعل قلوبها إيماناً وحماسة وطموحاً إلى حياة الشرف والاستقلال والسيادة والحكم الإسلامي حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولة تحكّمها وتدير دفتها ، أوجد بشعره القوى الهزاز القلق الفكري والاضطراب النفسي الذي عم هذا الشعب المسلم وساور الشباب الإسلامي بصفة خاصة فأصبحوا لا يرتاحون ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية والذلة وحكم الأجنبي حتى أصبحت في يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرة حقيقة راهنة وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلامي ، وتعلمون جميعاً أن الدول تسبقها الثورات الفكرية والتذمر من الحاضر والتطلع إلى المستقبل والقلق النفسي ، فإذا تم هذا كله ونضج قامت دولة فإن كان شعر قد أقام دولة وأحدث ثورة فكرية كانت سبب الانتقال من حياة إلى حياة ومن وضع إلى وضع ، فهو من غير شك شعر إقبال ،

وما ذلك أيها الإخوة إلا لمعرفة الرجل نفسه وتقديره الصحيح لمواهبه وقوته ووضعها في محلها والخيرة عليها من أن تضيع في موضوعات تافهة وألفاظ فارغة وأوان زاهية ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقرين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم وقيمة ما يحسنون وما يمتازون به عن أقرانهم فباعوا أنفسهم وعليهم بالمناداة أو باللغة المصرية بالمزاد العاني وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

العامل الرابع :

والمرتبة الرابعة أيها السادة الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته وفي قوة شعره وتأثيره وجدة المعاني وتدقيق الأفكار هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب والأشتغال بالمطالعة بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ويتعرض للنفحات السحرية ويقوم في آخر الليل فيناجي ربه ويشكو بته وحزنه إليه ويتزود بنشاط روحي جديد وإشراق قلبي جديد وغذاء فكري جديد فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد يلبس الإنسان فيه قوة جديدة

سماكة دأمله

وحياة جديدة ونورا جديداً ، لأنه يتجدد كل يوم فيتجدد شعره ويتجدد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السحر ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم ومفكر لا يستغنى عنها أكبر عالم أو زاهد ، يقول في بيت : كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شدت في العلم والحكمة ، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنة في السحر ، وكان شديد المحافظة على ذلك كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : رغم أن شتاء إنجلترا كان قارسا جدا وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ولكني لم أترك في لندن التبكير في القيام ، وكان لا يبغى به بدلا ولا يعدل به شيئا ، يقول في بيت : خذ مني ما شئت يا رب ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر ولا تحرمني نعيمها ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدى هذه الآلة السحرية والحرقرة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين فتحرك سواكن قلوبهم وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : اللهم جرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية وأيقظ الآمال والآمانى

من السحر في بيت : كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شدت في العلم والحكمة ، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنة في السحر ، وكان شديد المحافظة على ذلك كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : رغم أن شتاء إنجلترا كان قارسا جدا وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ولكني لم أترك في لندن التبكير في القيام ، وكان لا يبغى به بدلا ولا يعدل به شيئا ، يقول في بيت : خذ مني ما شئت يا رب ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر ولا تحرمني نعيمها ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدى هذه الآلة السحرية والحرقرة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين فتحرك سواكن قلوبهم وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : اللهم جرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية وأيقظ الآمال والآمانى

في بيت : كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شدت في العلم والحكمة ، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنة في السحر ، وكان شديد المحافظة على ذلك كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : رغم أن شتاء إنجلترا كان قارسا جدا وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ولكني لم أترك في لندن التبكير في القيام ، وكان لا يبغى به بدلا ولا يعدل به شيئا ، يقول في بيت : خذ مني ما شئت يا رب ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر ولا تحرمني نعيمها ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدى هذه الآلة السحرية والحرقرة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين فتحرك سواكن قلوبهم وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : اللهم جرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية وأيقظ الآمال والآمانى

النائمة في صدورهم ، بنجوم سمواتك التي لا تزال ساهرة ،
وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون
بنوم أرزق الشباب الإسلامي لوعة القلب وأرزقهم حي
وفراستي ، ويقول في قصيدة : اللهم ارزق الشباب أتى في
السحر وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخواقي التي تطرب
بها وتصطاد ، ليست لي أمنية يارب إلا أن تنتشر فراستي
ويعم نور بصيرتي في المسلمين .

العامل الخامس :

والعامل الأخير والمؤثر الكبير في تكوين عقليته
وتوجيه رسالته أيها السادة هو : المنشور المعنوي ، بالفارسية
وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية
ونفسية شديدة ضد الموجة العقلية الإغريقية التي اجتاحت
العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان
انتصاراً قوياً وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب
الصادق والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة والقشور
الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية
والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفق
قوة وحياة زاخر بالأدب العالي والمعاني الجديدة والأمثال

الحكيمة والحكم العالية والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة
القوية والطبع الريان الذي يملئ هذه المنظومة التي لا تزال
فريدة في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له
التأثير القوي في تحرير الفكر من رق العقل والتقديس
الزائد للقيم العقلية والخضوع للمادية الرعناء وبيعت التمرد
على عالم المادية الضيق والتطلع إلى أجواء الروح الفسيحة ،
وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوربي
الذي جرف بجميع القيم الخليفة والروحية ، وقد زادت الآلات
الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية والمبادئ
الخالقة وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارة عقابية ميكانيكية ،
وقد قضى محمد إقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان عامل
العقل وعامل القلب وقام صراع بين عقله المتمرد وعلمه
المتجدد ، وقلبه الحار الفاض بالإيمان ، وفي هذا الإصطراع
الفكري والاضطراب النفسي ساعده المنشور مساعدة
غالية ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً وحل له كثيراً
من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ويحفظ
له هذا الفضل ويذكره في كثير من أبياته ويعزو إليه كثيراً
من الحقائق والحكم ، يقول في بيت يخاطب أحد الأخوذيين

بسحر الغرب ، قد سحر عقلك سحر الإفريج فليس لك دواء
 إلا لوعة قلب الرومي وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري
 بنوره ووسع صدري بحراً من العلوم ، ويقول في بيت
 ، لقد أفتت من صحبة شيخ الروم أن كلياً واحداً -
 يشير إلى سيدنا موسى - هامة على راحته يغلب ألف
 حكيم قد أحنوا رؤسهم للتفكير ، وكان محمد إقبال يرجو
 أن يجدد عليه ورسائله في القرن العشرين ويخلفه في مهمته
 العلية والروحية ، وكان يشعر أن الشيخ لا يزال يفوقه في
 الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارة لطيفة ، يقول
 في قصيدة لم ينهض رومي آخر من ربوع العجم مع أن أرض
 ليران لا تزال على طبيعتها ولا تزال تبرز كما كانت إلا أن
 إقبال ليس قانطاً من تربته فإذا سقيت بالدموع أنبتت
 نباتاً حسناً وأنت بحاصل كبير ، .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال
 وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ولا شك
 أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، فإذا كانت المدرسة
 الأولى منحه مفردات اللغات المتعددة وكميات من المعلومات
 وافرة فقد علمته المدرسة الثانية كيف يستعمل هذه المعلومات

وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحه المدرسة الثانية
 العقيدة الراسخة والإيمان القوي والخلق المستقيم والتفكير
 السليم ، والرسالة الفاضلة .
 نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم الحديث في باكستان

(٤٣)

نظام التعليم :
 نظر محمد إقبال إلى مدرسة الأولى فرأى فيها مواضع
 ضعف كثيرة وجوانب نقص عظيمة فتناولها بالانتقاد
 في صراحة وشجاعة ولفت إليها أنظار الرجال القائمين عليها
 وذكر من جنائبات المدرسة - ويقصد بها نظام التعليم
 الحديث - على هذا الجيل شيئاً كثيراً يفيض به دواوين
 شعره ، يقول في بيت ، لقد خرجت من المدرسة والزاوية
 حزينا لم أجد فيهما الحياة ولا الحب ولا الحكمة ولا البصيرة ،
 ويقول في بيت آخر ، أما رجال المدرسة ففقدوا البصر
 وميتت الذوق ، وأما شيوخ الزاوية ففقدوا الهمة وضعفوا
 الطلب قليلوا البصاعة ، .

جنائبات المدرسة :

ومن رأى محمد إقبال أن التعليم الحديث قد جنى على
 هذا الجيل جنابة عظيمة إذ اعتنت بتربية عقله وتثقيف

نظر محمد إقبال إلى نظام التعليم الحديث في باكستان
 ١٣٧٠

لسانه ولم تعتن شيئاً بتغذية قلبه وإشعال عاطفته وتفويج أخلاقه وتهذيب نفسه ، فنشأ جيل غير متوازن القوى غير متناسب النشأة قد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه وعقله وقلبه وعلمه وعقيدته مسافة شاسعة ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً فالأول ضخم وكبير والثاني ضعيف وناعم ، وهو إذا وصف هذا الجيل الذي عاش فيه وعرفه عن كذب واتصال صوره تصويراً صادقا ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد ، يقول :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل . كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس . لم يشاهد في هذا العالم شيئاً . هؤلاء الشباب أشباه الرجال ولا رجال ، يشكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، يبنى الأجانب من تراهم الإسلامى كنائس وأديارات ، شباب ناعم رخو رقيق في الشباب كالحرير ، يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية ، إن المدرسة قد نزعّت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خيراً كان ، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من

من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية يندون كنفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليه بخبز شعير ويبيعون أرواحهم في ذلك . إن المعلم لا يعرف قيمتهم فلم يخبرهم بشرفهم ولم يعرفهم بشخصيتهم ، مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت ولا يؤمنون بأنه لا غالب إلا الله ، يشترون من الأفرنج اللات ومئات ، مسلمون لكن عقولهم تطوف حول الأصنام ، إن الأفرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحة وقلوب قاسية ، وعيون لا تعفت عن المحارم وقلوب لا تذوب بالقوارع ، كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب بطوف حول الماديات . قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة وأفكارهم لا تساوى شيئاً ، حياتهم جاهدة واقفة متعذلة .

ويذكر محمد إقبال أن السبب في جبن هذا الجيل وضعفه الخلقى هو الوضع التعليمى الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقى ونشأة الشباب المتحللة يقول في قصيدة ، لا أستغرب أيها شباب المتعلم أنك حتى جبان فان قلبك بارد لا لوعة فيه ولا حرارة ونظرك غير عفيف ، إن الشاب المثقف الذى تسنارت عينه بنور الأفرنج قد يكون لبقاً فى الحديث متشدداً

في الكلام ولكن حينه لا تعرف الذموع وقلبه لا يعرف الخشوع ، ويرى محمد إقبال أن المدرسة هي المسئولة عن هذا المسخ الخلقى وهي التي نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع إلى الخلل الوضيع يقول في بيت ، أشكو إليك يارب من ولاية التعليم الحديث إنهم يربون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور وأشبال الأسود تربية الخروف ، ومن أسباب هذا الضعف النفسى هو العقل المشبث الذى يمنع من المغامرات والمخاطرة بالتفلسف ويحذر من سوء العاقبة ويكبر الأخطار ، يقول في بيت ، إن التعليم قد باعدك من الجنون الذى كان ينازع العقل ويقول له : لا تتعلم ولا تثبطنى عن المغامرة . إن الأسرار التى حجبتها عنك المدرسة لاتزال مكشوفة فى خلوات الجبال والصحارى ، ومن أكبر أسباب هذا الضعف والنذل التقدير الرائد الزاد والنظر إلى الوظيفة والمراتب كغاية للتعليم ، يقول فى بيت ، إن ذلك العلم سم نافع للأفراد الذى ليست له غاية إلا حفتان من شعير (يعنى الراتب الذى يتقاضاه الموظف) .

مأخذه على التعليم :

ومن أكبر مأخذه على هذا التعليم أنه يبعث على التمهط وحب الهدوء والراحة ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء لا حركة فيه ولا اضطراب ، يقول فى بيت ، رماك الله أيها المتعلم بطوفان ، فإن بحرك هادىء لا اضطراب فى أمواجه ، وكذلك يبعث هذا التعليم فى الشباب الإخلاق إلى الراحة والترف وحب التزيينة ، يقول فى قصيدة ، إن مقاعدك أيها الشباب المسلم أفرنجية وزراييك إيرانية ، وإنى أكاد أبكى دماً إذا رأيتك فى هذا الترف والبذخ ، لا خير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا مادمت متجرداً من قوة على واستغناء سلمان ،

ومن مأخذه على هذا التعليم أنه يحدث الفوضى الفكرية ، يقول فى بيت ، إن المدرسة تحرر العقل بلا شك ولكنها تحرك الأفكار بغير نظام وارتباط ،

ومن مأخذه على نظام التعليم العصرى والمدرسة التى تمثله وتودى رسالته أنها مصابة بالتقليد والجمود وبجودة من الابتكار والاجتهاد ، يقول فى قصيدة ، إن العالم أسير التقاليد والأوضاع وأن المدرسة منحصرة فى نطاق ضيق ، يا للأسف حين الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا أئمة زمانهم ،

أصبحت عقولهم بالية وفقدت كل نشاط وجدة فاقتنعوا بتقليد عصرهم ،

إن الدكتور محمد إقبال لا يرى أن هذا الجيل حتى قائم بنفسه يفكر بعقله ، انه يعتقد أنه ظل لأوروبا وأن حياته عارية من الغرب يقول في بيت ، يترأى لك أن الشاب المتعلم حتى يرزق ولكنة في الحقيقة ميت استعار حياته من الغرب ، ويخاطب المتفرنج ويقول ، ليس وجودك إلا تجلي الإفراج لأنك بناء قد بنوه ، هذا الجسم العنصرى فارغ عن معرفة النفس فأنت غمد محلى بغير سيف ، وجود الله غير ثابت في نظرك ووجودك أنت غير ثابت في نظرى ،

وعن رأيه أن نظام التعليم الغربى قد ضعف الروح المعنوية في الشباب المسلم وجنى على رجولته جنابة عظيمة فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائماً أعيد لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المسكروه ، يقول في قصيدة يخاطب فيها بعض المرين ، حيا الله شبيبتهك يا مربي الجيل الجديد ، ألق عليهم درس التواضع وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية ، علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال فإن العرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج ، إن عبودية قرنين

متوالين قد كسرت خاطرهم وأوهنت قلوبهم فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم وتحارب الفوضى الفكرية ، وكان لا يفتخر هذه الجريمة ، يقول في موضع آخر ، أنا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً التي تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزل ضعيفاً ، نظرة محمد إقبال إلى العلم والآداب :
آرؤه في العلوم والآداب :

للدكتور محمد إقبال آراء حصيفة في العلوم والآداب والشعر هي عصارة تفكيره وتجاربه منها أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله وقوة عظيمة يحدث به صاحبها انقلاباً في المجتمع وثورة فكرية ويضرب به الأوضاع الفاسدة لضربة القاضية ويشعل القلوب حماساً وغضباً ويشعل البلاد ناراً وثورة ، ويملا النفوس قلقاً واضطراباً وتذمراً من الشر وتطلعا إلى الخير ، فلا بد أن يكون في قلم الأديب والشاعر التأثير الذي كان في عصا موسى وأن يؤدى رسالته في العالم ، وكل أدب استغل لجمع المادة أو إرضاء الأغنياء والأثرياء أو إثارة الشهوات أو على الأقل كان أداة اللهو والتسلية والتذوق بالجمال والتغنى به فهو أدب ضائع مظلوم استعمل تغير ما خلق له ولغير ما وهب له ، يقول في بيت ، أنا

لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به فذلك أمر طبعي ،
ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع
كثاثير عصا موسى في الحجر والبحر ، ويعتقد محمد إقبال
أن الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز حتى يستمد حياته وقوته
من أعماق القلب الحي ويسقي بدمه .

يقول محمد إقبال هذا ويرى بالعكس أن الأدب في الشرق
الإسلامي قد أصبح تنحيم فيه المرأة فأصبح لا يتحدث إلا عنها ،
ولا يتغنى إلا بها ولا يبحث إلا فيها ولا يصور إلا إياها ولا يرى
في السكون إلا ظلمها وجمالها ، وهذه عقيدة جديدة في وحدة
الوجود التي يمكن أن تسمى الوجودية الأدبية ، وكان الأدب
العصري ينادى بلسان حاله (لا موجود إلا المرأة) أو
(لا موجود إلا الفتاة) يقول محمد إقبال : أسفاً للشعراء
والرسامين وكتاب القصة في بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم
المرأة ، ولا شك أنه تصوير صادق للاتجاه الأدبي العام
في الشرق الإسلامي واندفاع الأدب المتهور وراء المرأة
وهيامه بها وإعراضه عما سواها .

وله في الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأى خاص فهو
يرى أن الفلسفة لا تعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأن

الفلسفة التي تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية وتلهي
بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ، ولا تدخل في صميم
الحياة ولا تعترض للمجتمع ، وتعيش في العزلة عن العالم ،
إنما هي فلسفة منارة لا تستطيع أن تعيش ، يقول في بيت
: إن الفلسفة التي لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة ،
وقد انتهت به دراسته للفلسفة وتوفره على مطالعتها
ونقدها والتفكير الطويل العميق إلى فشل الفلسفة في مشاكل
الحياة وأنها صدفة لامعة خالية من اللواتق ، وأنها مجردة عن
الحياة والكفاح لا تساعد البشر ولا تمنحهم دستوراً
للحياة وأن الدين هو الذي ينظم المجتمع وينور الطريق
ويقدم دستوراً للحياة ، وأن سيدنا محمدأ صلى الله عليه وسلم
هو المصدر الوحيد الذي يستفاد منه هذا العلم ، عرف الشاعر
صديقا له من السادة الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً
كبيراً وتزلزلت عقيدته الإسلامية ، فكتب إليه محمد إقبال
قصيدة يقول : أنا رجل كما تعرف انتهى في أصلي إلى سومنات
، المعبد الوثني المعروف في الهند ، وكان آبائي من عباد اللات
ومناة وأن أسرتي عريقة في البرهمية ، ولكن يجري في عروقك
دم الهاشميين وتنتمي إلى سيد الأولين والآخرين ، وقد امتزجت

الفلسفة بلحمي ودمي وجرت منى مجرى الروح، أنا وإن كنت
لا أحسن شيئاً فلا شك أنى نزلت في أعماق هذه الفلسفة
وتغلغلت في أحشائها، وبعد ذلك أقول إن الحكمة الفلسفية
ليست إلا حجاباً للحقيقة لأنها لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن
صميم الحياة وأن بحوثها وتدقيقاتها تفضي على روح العمل، هذا
هي جعل الذي نبالغ في تقديره إن صدقته خالية من اللؤلؤة
وأن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام، لقد انطفت شعلة
القلب في حياتك أيها السيد وفقدت شخصيتك فأصبحت
أسيراً لير جسدان، إن البشرية تريد أن تعلم كيف تتقن حياتها
وكيف تخلد شخصيتها. إن بني آدم يطلبون الثبات ويطلبون
دستوراً للحياة، ولكن الفلسفة لا تساعدهم في ذلك، بالعكس
من ذلك أن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم
واستيقظ الكون، إن الدين هو الذي ينظم الحياة وأنه
لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم، فعليك
أيها السيد بتعاليم جدك صلى الله عليه وسلم، إلى متى يا ابن على
(رضي الله عنه) تقلد أبا علي (ابن سينا) ! إذا لم تسكن
بصيراً بالطريق فالقائد القرشي (يعني رسول الله صلى الله
عليه وسلم) خير لك من القائد البخاري (يعني ابن سينا) .

وبالإجمال إن الدكتور محمد إقبال يرى أن نظام التعليم
الحديث قد ^{أخفق} فشل في أداء رسالته وأخفق في إنتاج جيل
جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته ويحسن استعمال مادته العلمية
وثروته الثقافية ويضع كل شيء في محله ويعيش حياة سعيدة
مطمئنة، بالعكس من ذلك وجد جيل مثقف ثقافة عالية
يعرف من مجاهل أفريقيا والقطب الشمالي شيئاً كثيراً وعن
حياة الحيوان والنبات ولا يعرف عن نفسه، ويسخر البخور
والسكهرباء ويسخر الطاقة الذرية في الزمن الأخير ولا يملك
نفسه وقوته، ويطير في الهواء كالطير ويسبح في البحار كالسمك
ولا يحسن أن يمشى على الأرض، وما ذلك إلا لأن التعليم
قد اختل ميزانه وفسد مزاجه وكيف يستقيم الظل والعود
أعوج !؟ يقول في قصيدة من الغريب أن من اقتنص
أشعة الشمس لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح، وأن
من بحث عن مسالك النجوم وطرقها لم يستطع أن يسافر
في بيداء أفكاره، ومن عكف على الأغاز يحاها ويشرحها،
لم يستطع أن يميز النفع من الضرر .

تصوير للشباب المسلم :

وفي الأخير إن الله كتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلا
جديداً شباباً طاهراً نقياً وضربه موجع قوى ، إذا كانت
الحرب فهدى في صولته كأسد الشرى وإن كان صلح فهو في
وداعته كغزال الخي ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة
الحنظل هذا مع الأعداء وذاك مع الأولياء ، إذا تكلم كان
رقيقاً رقيقاً وإذا جد في الطلب كان شديداً حفيماً وكان في
حائتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلة ومقاصده
جليلة ، غنى القلب في الفقر فقير الجسم والبيت في الغنى ،
غيبوراً في العسر رؤفاً كريماً عند اليسر ، يظماً إن أبدى له
الماء منة ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة ، إذا كان بين
الأصدقاء كان حريراً في النعمة وإن كان بين الأعداء كان
حديداً في الصلابة ، كان طلاً وندياً تتفتح به الأزهار وترف
به الأشجار وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له
البحار ، إذا عارض في سيره صخور وجبال كان شلالاً ، وإن
مر في طريقه بحدائق كان مائماً سلسالاً ، يجمع بين ظلال
إيمان الصديق وقوة علي ، وفقر أبي ذر وصدق سليمان ،
يقينه بين أوهام العصر كصباح الراهب في ظلمات الصحراء ،

يعرف في محيطه بحكمته وفراسته وبأذان السحر ، الشهادة
في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والعنائم ، يقتصر
النجوم ويصطاد الأسود ويبارى الملائكة ويتحدى الكفر
والباطل أينما كانا ، يرفع قيمته ويزيد في سعره حتى لا يستطيع
أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة وحياة الجد والجهاد
عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، وشعر بإنسانيته فترفع عن
تقليد الطأوس في لونه والعندليب في حسن صوته .

الانسان الكامل
في نظر محمد إقبال

الانسان الكامل (*)

في نظر محمد إقبال

بحث عن إنسانه :

قال مولانا جلال الدين الرومي في بعض مقطوعاته
و رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة وقد حمل مشعلا
كأنه يبحث عن شيء ، قلت له يا سيدي تبحث عن ماذا ؟
قال قد مللت معايشة السباع والدواب وضقت بها ذرعا ،
وخرجت أبحث عن إنسان في هذا العالم ، لقد ضاق صدري
من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حوني . فخرجت
أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عيني
برجولته وشخصيته ويروح نفسي ، قلت له : لقد غرتك
نفسك يا هذا فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله لا تعب نفسك
وارجع أدراجك فقد أجهدت نفسي وأنضيت ركابي
ونقبت في البلاد فلم أر لهذا الكائن عينا ولا أثرا ، قال الشيخ

(*) كتبت هذه المحاضرة لثاني في كلية الآداب بجامعة نيواد الأول
في يوم إقبال ١٠ أبريل عام ١٩٥١ م .

إليك عن أيها الرجل فأحب شيء إلى نفسي أعزه وجوداً
وأبعده مني

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه
الحال من رسالة الشرق، رداً على قضية الشاعر الألماني هيجته
التي أرسلها إليهم الغرب إلى الشرق، ولا أظن أن محمد إقبال
إختار هذه المقطوعة وحلي بها صدر كتابه إلا لأنها تصور
نفسيته وتعبير عن شعوره، فقد كان يحكم دراسته الفلسفية
من كبار الرواد الباحثين عن الإنسان الكامل، فهل وجد
محمد إقبال ضالته يا ترى وظفر بمطلوبه أم قطع منه الرجاء؟
وإذا كان الجواب: نعم لقد وجد محمد إقبال ضالته من
الناس وظفر بوطره من الرجال فتأكدوا لغير السادة أنه
فتح أعظم من فتح كلبس، واكتشاف أجل خطراً وأعظم
قدراً من اكتشاف العالم الجديد لأنه اكتشاف الإنسان
المفقود وعثور على الإنسانية الضائعة ولا خير في العالم -
قديمه وجديده - إذا فقد الإنسان وضاعت الإنسانية،
وحاجة العالم إلى إنسان أشد اليوم من حاجته إلى القارات
الجديدة والبحار المجهولة.

المسلم هو الإنسان الظالم:

إن محمد إقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد هذا الإنسان
المنشود وعرفه واتصل به ونراه قد هام به هياماً وتغنى في شعره
بإنسانيته وشخصيته، فأين وجده محمد إقبال، وكيف السبيل
إلى هذا الإنسان الرفيع؟

أخاف أن أفاخكم لغير السادة بما لا تقدرونه ولا تنتظرونه
إذا أخبركم أن الإنسان الكامل الذي وجده محمد إقبال
فوجد فيه ما كان ينشده من معاني الإنسانية والقوة والحياة
والجمال والكمال هو (المسلم) لا أقل ولا أكثر.

إن هذا الجواب مفاجئة حقاً للمذين يحملون للمسلم صورة
قائمة هزيلة لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع الذي قدمه
الشاعر للإنسان الكامل، ولكن محمد إقبال بالعكس من ذلك
يرى في المسلم الضالة المنشودة، والصورة الكاملة للإنسانية
المسلم التالي:

ولكنه يعني لغير السادة ذلك المسلم المثالي الذي يمتاز
بين أهل الشك والظن بإيمانه وبقينته، وبين أهل الجبن
والخوف بشجاعته وقوته الروحية، وبين عباد الرجال

والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بأفاقيته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والأتانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ورسالته ، ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغير ولا تتحول ، وأما ما عداه فزبد يذهب جفاء ، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، أما ما عداه فشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول في بيت « إنك أيها المسلم حق في العالم وحدك وما عداك سراب خادع ودرهم زائف » ، ويقول في بيت آخر « إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما عداه في هذا العالم المادى وهم وظلم ومجاز »

المسلم له وجودان :

أولهما الطبيعي إن المسلم له وجودان ، الوجود الإنساني ، والوجود الإيماني ، أما الوجود الإنساني فهو الوجود الذي

يشاركه فيه كل إنسان ، يولد كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ويجوع ويظأ ويشعر بالبرد والحز ويأكل ويشرب ويصح ويمرض ويموت ويحيا ويفقر ويعنى ويزرع ويتجر ويعول العيال ويربي الأطفال ويقتنى الأموال ويحكم البلاد والرجال ، فهو في هذا الوجود خاضع للمسنن الطبيعية تجري عليه كما تجري على غيره وتنفذ فيه كما تنفذ في أي إنسان آخر . وتقسو عليه كما تقسو على غيره ولا تتساع معه لأنه يحمل اسماً خاصاً وينتمى إلى جنس خاص ويلبس لباساً خاصاً ، وهو ذرة حقيرة في صحراء الوجود المترامية وموجة عادية تأتي وتذهب في بحر الكون الزاخر من غير أن يشعر بها أحد ، فإذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشري العام وعاش كإنسان لا أقل ولا أكثر كان كائناً ضعيفاً قائماً ليست له قيمة كبيرة في نظر صير في الوجود وإذا مات في وقته ما بكت عليه السماء والأرض وما خسر فيه العالم شيئاً كبيراً .

أما الوجود الإيماني فهو أنه يحمل رسالته خاصة رسالة الأنبياء والمرسلين ويؤمن بمبادئ خاصة ويعتقد اعتقاداً خاصاً ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ودعامة من دعائم العالم وحاجة من حاجات البشرية

يستحق أن يعيش ويستحق أن ينتصر ويستحق أن يزدهر، بل يجب أن يعيش ويجب أن ينتصر ويجب أن يزدهر، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون، فحاجة البشرية وحاجة الكون إليه ليست أقل من حاجتهما إلى الماء والهواء والنور والحرارة، فإذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالسماء والهواء والنور والحرارة كانت معاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق التي تتكفل برسالات الأنبياء بشرحها وبيانها وتكفل المسلم بإعلانها والقيام بها والجهاد في سبيلها، فلولا هؤلؤاضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سرّاً مكتوماً، إذن فركزه في العالم وبقائه كبقاء الشمس والكواكب النيرة تنقرض الأجيال والأمم ونحوال الأنهار مجراها وتخرّب عمائر وتعمر خرائب وتقوم حكومات وتنقاص حكومات وتأتي مدينت وتذهب مدينت وهو قائم لا يزول ولا يحول.

المسلم هي خالد :

يعتقد محمد إقبال أن المسلم هي خالد لأنه يحمل رسالة خالدة ويحتضن أمانة خالدة ويعيش لغاية خالدة ، يقول في

بيت ، ولا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم لأن وجوده رمز لرسالات الأنبياء وأن أذاته إعلان للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم ، ويقول في بيت آخر ، المسلم رسالة الله الأخيرة فلا يتمزج النسخ والتبديل ، ولا يعني محمد إقبال أن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية هي خالد بقلت من الموت ويتمرد على القانون الطبيعي ، كيف وقد قال الله تعالى ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وقال ، أفإن مت فهم الخالدون ، ولكن محمد إقبال يرى أن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضم يأتي موج وبذهب موج وتترامى هذه الأمواج في أحضان البحر وتلاشي في وجوده والبحر لا يتغير فالبحر امتداد دائم وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة كبحر الحياة وبحر الوجود تنبديل أمواجه - وهي أفراد البشر - ولا يتبدل كيانه.

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد إقبال خطوة أخرى فيعتقد أن المسلم هو غاية هذا الكون خلق العالم له وخلق هو الله ، لقد كان العلماء يتباحثون في صحة حديث ، لولاك لما خلقت الأفلاك، ولكن

محمد إقبال لانهم صحة هذا الحديث لفظاً ورواية ، إنه يفهم من القرآن ومن دراسة الإسلام وطبيعة المسلم ورسالته السامية ويفهم من دراسة التاريخ الإنساني الواسعة العميقة والإطلاع الواسع على أوضاع العالم وطبائع الأشياء ، أن المسلم الذي هو جارحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه هو مصداق معنى الحديث فضلاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو خليفة الله في أرضه خلق لأجله العالم وعلمه الأسماء وحكمه في الأرض وأورثه خيراتها وخزائنها وألقى إليه بمقاليدها فيجب عليه أن يعتقد ويقتنع بأن العالم خلق له ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة وتحقيق هذه الفكرة ، يقول في بيت : إن العالم تراث للنؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعد مؤمناً كاملاً من لا يعتقد أن العالم خلق له .

مفاسم المسلم مفاسم الرسامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويسائر الركب البشري حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه ويملي عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ولأنه

المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ، فليس مقامه مقام التقليد والإتباع ، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ، مقام الإرشاد والتوجيه ومقام الأمر بالناهي ، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله وبطل في صراع معه وعراك حتى يقضى الله في أمره ، يقول في بيت ويقول من لآخلاق له ، در مع الدهر حيث دار ، وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه ، وأنا أقول إذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه حتى يقضي إلى أمر الله ، ويرى أن المؤمن غير مأذون بمجاراة الأوصاع بل هو مكلف بمصادمة الأوصاع الفاسدة يرد الأمر إلى نصانه ويقوم بالقوة الدهر الغشوم ، ويقوم العوج ويصالح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض والعملية الجراحية فإن كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والإصلاح ، يقول في بيت وعلى المسلم أن يربي في نفسه الروح وينشئ في هيكله الحياة ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته وينشئ عالماً جديداً ، ويقول متمثلاً : سألني رب هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك؟ قلت لا ياربي ! قال لخطمه ولا تبال ،

ويرى محمد إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسية والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأفزام ، يقول في بيت : المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد ، ويقول : إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبه ،

السلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال أن المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح في التاريخ ومطلع فجر السعادة في العالم ، وأنه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب ورسول الحياة ومؤذن الفجر في الليل البهيم ، وأن أذانه لا يزال صيحة تدوى في هدوء الليل وسكون الموت فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه ويؤذن بطاوع الصبح الصادق وانصرام الليل الغاسق ، وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالى الذى ارتفع من جبل أبي قيس قبل ثلاثة عشر قرناً استيقظ هذا السكون بعد السبات العميق الذى شط فيه خمسة قرون وأكثر وكان نفخة صور

للإنسانية الميتة والعالم المحتضر وهو السكفيل الآن بإيقاظ الإنسانية وإحياء الضمير البشرى ، يقول في بيت : إن المؤمن اذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم واستيقظ السكون ، ويقول في قصيدة : لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح الذى يطلع على هذا العالم كل يوم ولست أعلم سره ، ولكننى أعلم أن السحر الذى يهتز له هذا العالم المظلم ، ويربى به ليل الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق ،

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد إقبال بحق أن قوة المؤمن الخارقة للعادة ، المحيرة للعقول ، المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه وباندماجه واضمحلاله في إرادة الله ، هنا الك يتحول جارحة للقدرة الإلهية وقوة القاهرة لا تصدها الجبال ولا تقف في سبيلها البحار ، يقول في قصيدة أنشأها في قرطبة : إن يد المؤمن جارحة القدرة الإلهية ، فهى غلابة حلالة للعقد والمشاكل ، فتاحة للأبواب المقفلة ، لبقة صناع حاذقة ، إن المؤمن جسمه من تراب وفطرته من نور ، عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غنى عن العالمين ، ويقول على لسان القائد الإسلامى

الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس وهو يدعو لأصحابه
العرب بالنصر ويناجي ربه إن هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك
الغامضون الذين لا يعرفهم غيرك وقد أصبحوا اليوم يطمحون
إلى فتح العالم وإخضاعه ، إذا ركلوا برجلهم الصحراء
انثقت إذا ركلوا برجلهم البحر انقلب ، انكشمت الجبال
وتقبضت بمهابتهم ، إنهم عرفوك وأحبوك فزهدوا في العالم
واستغنوا عن الدنيا ، لا يطلبون إلا الشهادة في سبيلك
ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة
الإبل بتعمتك وعينتهم بن أقرانهم في الخبر والنظر وأذان
السحر ، لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب والتوجع للإنسانية
المظلومة وفي قلوب هؤلاء الجريحة وفي أكبادهم المتقدمة
وجد العالم مأربه ، بل أن الشاعر يتقدم خطوة ويقول
« ما ظنك بقوة ساعد المؤمن وهو بنظرته يقلب الأوضاع
وبدعوته يرد القضاء ، والمطلع على التاريخ يصدق ما قاله
محمد إقبال فقد هزأ المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول
من الجبال والبحار وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعرضهم
من أشواك وعقبات ، وقصص سعد بن أبي وقاص وخالد
ابن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وعقبة بن عامر ومحمد

ابن قاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق ابن زياد شاهدة
على صدق ما قاله محمد إقبال .

المسلم لا ينحصر في الأوطان والشعوب :

ويرى محمد إقبال أن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين
حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المكان
والزمان وتفيض كالطبيعة البشرية وكالإنسانية العامة في
مساحة زمانية شاسعة كساحة التاريخ الإسلامي وفي مساحة
مكانية واسعة كساحة العالم الإسلامي ، يقول في قصيدة
قرطبة « إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ولا يعرف أفعه
الثغور ، ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواج صغيرة في
بحره المتلاطم ، عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد
العتيق وغير مجرى التاريخ ، هو في كل عصر ساق أهل الذوق
وفي كل مكان فارس ميدان الشوق ، شرابه رحيق دائم وسيفه
ماض في كل معركة ، ويعتقد محمد إقبال أن العالم كله وطن
للمسلم ، يقول في بيت « المسلم الرباني ليس بشرفي ولا غربتي
ليست وطني دهلي ولا أصفهان ولا سمرقند ، إنما وطني العالم
كله » ويعتقد محمد إقبال إن المسلم يعتبر كل ذلك الله وطنه له

يقول : لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت ،
 بجأه رجال من الحبش ولا موه على فعله وقالوا له : لقد قطعت
 بنا السبل فكيف نرجع إلى بلادنا ؟ فوضع طارق يده على
 السيف وقال أنا لا أفكر في الرجوع وسابق هنا وتنخذه
 وطننا ، فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد ووطن لنا ، لا فرق
 في ذلك بين العجم والعرب والشرق والغرب .

المسلم متعلق بأرضه والله :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يجمع بين المتناقضات من
 الأخلاق والصفات وما هي بمتناقضات ولكنها ظلال صفات
 الله ومظاهر أخلاق الله ، فهو في تسامحه ورحابة صدره
 وكثرة صفحه قد تخلق بخلق « الغفار » ، وفي شدته في الدين
 ونخصبه للحق وثورته على الباطل قد تخلق بخلق « القهار » ،
 وهو في نزاهته وعفته وطهارة ضميره قد تخلق بخلق « القدوس » ،
 وفي صلابته إذا تصاب وشدة شكيمته إذا أبى وشدة بطشه
 إذا حارب تخلق بخلق « الجبار » ، ولا يكون المسلم المثل الكامل
 لدينه وصورة صادقة للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق
 المتنوعة فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب والرحمة والصلابة

والمرونة والعفة والنزاهة ويكون في ذلك آية من آيات الله
 ومعجزة من معجزات الرسول ، ثم يقول الشاعر إن المؤمن
 هو الميزان العادل والقسطاس المستقيم به يعلم رضا الله
 وسخطه وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق في نظره فهو
 حسن وما استقبحه فهو قبيح وما ثقل في ميزانه فهو ثقل
 وما خف فهو طائش ، وفي عزائمه تتجلى إرادات الله وهو
 القرآن الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه ، ثم إن حياته
 متوافقة متشابهة كالطبيعة فالصبح يطلع كل يوم والميل يتبع
 النهار لا تخلف فيه ولا تناقض وهو صاحب معان كثيرة
 ونعمة واحدة فهو كسورة الرحمن في القرآن تتجدد معانيه
 وتتكبر فيسه آية « فبأى آلاء ربك تكذبان » وقد صدق
 الشاعر فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلمه وتوجهاته
 وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ويضرب على وتر واحد
 ويكرر رسالة الأنبياء ويقول لكل جيل « يا قوم اعبدوا الله
 ما لكم من إله غيره » فهو كالصبح جديد وقديم فهو في جده
 ليس شيء أجد منه وهو في قدمه ليس شيء أقدم منه ، هو
 قديم لكنه يتجدد به العالم وتتجدد فيه الكائنات وتنعش
 به القوى وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعمول ، ثم أنه

جديد بنفسه تتجدد قواه ويتجدد نشاطه وتفتح قريحته مع
 المصور، عليه سيار وعقله مبتكر ونفسه طموح وهمة وثابة
 وهو كالقطر كل قطرة غير الأولى ولكنها قطرات مطر
 وكلها تحي الأرض وكلها تنبت النبات وكلها تسقي المزارع
 والأشجار وكلها تفتح الأزهار وكلها تكون الأنهار وهو
 معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: أمتي كالقطر لا يدرى
 أوله خير أم آخره . . .

المسلم بالشمس لا تغرب مطلقا :

ويقول محمد إقبال إن المسلم كالشمس إذا غربت في جهة
 طلعت في جهة أخرى فلا تزال طالعة ، وقد صدق فإن
 الإسلام لم ينكسب في ناحية من نواحي العالم ولم يخسر
 إلا وفتح فتحاً جديداً في ناحية أخرى ولم يخسر في جانب
 دولة إلا وقامت له دولة في جانب آخر، ولم تسقط له راية
 إلا وخفقت له راية أخرى، ولم يغيب له نجم إلا وطلع له نجم
 آخر ، لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثة كبيرة
 ومصاباً عظيماً ولكن عوض الإسلام بها بدولة فنية من
 أعظم دول العالم هي دولة آل عثمان في تركيا قامت في نفس

القارة الأوروبية وجئمت على صدر الدول والأمم المسيحية
 التي انتزعت الأندلس الإسلامية وأجلت المسلمين من وطنهم
 العربي الإسلامي، وكان سقوط غرناطة وأوج الدولة العثمانية
 في عهد سليمان القانوني حادثين في عصر واحد، ونكسب العالم
 الإسلامي ونكسب بغداد بغارة التتار وانظمت معالم
 الحضارة الإسلامية وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ولكن
 في نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة في الهند تنسج
 وتزدهر، وأصيب العالم الإسلامي بهزات عنيفة وقواصم
 مؤلمة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الأوربيين، فقد
 اقتسمت الدول الأوروبية تراث الدولة العثمانية كمال سائب
 واغتصبت ممتلكاتها في أفريقية وتقاسم الخلفاء سوريين
 وفلسطين والعراق ، ولكن تبع هذا كله اليقظة الإسلامية
 الهائلة والوعي السياسي القوي والطموح إلى الاستقلال
 والحرية والحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيش بها العالم
 الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، ونكسب المسلمون في العهد
 الأخير نكسات عظيمة في الشرق الأقصى والأوسط وخسرت
 الدول العربية فلسطين العربية الإسلامية ولكن في نفس
 هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيحتان في الشرق إحداهما

و إن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنته وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدثت بهم وهددت نظامهم وجللوا خطيئها وتناذروا شرها فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حسابا كبيرا ، فقال الثاني : لا يهولئك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهورى إذ رأينا الإنسان بدأ يفتنه ويفيق ويشعر بكرامته وخفنا ثورة على نظامنا قد لا نتمدد عاقبتها فألهيناه بلعبة الجمهورية وليس الشأن في الأمير والملك ، إن الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيها الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالا على غيره مستشرقا إلى متاع غيره سواء في ذلك الشعب والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهورى وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التي أثارها هذا اليهودى الذى يدعى كارل ماركس ، ذلك الباقعة الذى

دولة باكستان والأخرى أندونيسيا ، وهكذا لم يزل التاريخ الإسلامى متأرجحا بين الأسفل والأعلى فما تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر كالأرجوحة تماما ، ولم تتوار شمس في أفق إلا وبزغت في أفق آخر ، وذلك لأن الإسلام رسالة الله الأخيرة التي لا رسالة بعدها والمسلمون هم الأمة الأخيرة التي لا أمة بعدهم ، فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة وإذا هلكوا فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .

المسلم هو المنافس العرمير والمظهر الدائم على الباطل :

لذلك لم يزل الباطل يعتبر المسلم المنافس الوحيد والمضارع الشديد لنظامه ، وذلك لأنه يحسبون له كل حساب ويتربصون به الدوائر ولا يعدلون به خطراً من الأخطار ولا يهدأ لهم بسببه خاطر ولا يقر لهم قرار ، وهم ينادون بلسان الحال ، لا نجونا أن نجا الإسلام ولا عشنا أن عاش المسلمون ، وقد وصف محمد إقبال في قصيدته البديعة « برلمان إبليس ، في ديوانه الأخير » أرمان حجاز - يعنى - هدية الحجاز ، وذكر خطورة الإسلام في نظر إبليس وجنوده ^{يقول} وأنا أنقل هنا ترجمته من كتابي « ماذا خسر العالم بالخطاط المسلمين ؟ » .

Handwritten text in Arabic script, mostly illegible due to heavy noise and grain in the scan.

Handwritten text in Arabic script, mostly illegible due to heavy noise and grain in the scan.

۲۷۴

ليس نبيا ولكنه يحمل عند أتباعه كتابا مقدسا ، هل عندك نيا أنه أقام العالم وأقعدته وأثار العبيد على السادة ، حتى ترعزت مبانى الإمارة والسيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة إن صحرة أوروبا وإن كانوا مرينديك المخلصين ولكني لم أعد أتق بفراسمهم ، ها هو السامري اليهودي الذي هو نسخة من « مزدك » [الرعي الفارسي الاشتراكي] ، قد كاد يأتي على العالم بشواغده فاستنفس البعاث وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالذناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحا) أنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية وها هي قد استفحلت وتفاقم شرها وها هي الأرض ترجف بهول فتنة الخد ، يا سيدي إن العالم الذي كنت تحمكه سينتقض عليك وينقلب نظام العالم ظهر أ لبطن .

فتكلم رئيس المجلس « إبليس » وقال : إني أملك زمام العالم وأنصرف به كيف أشاء وسيرى العالم عجبا إذا حرشت بين الأمم قهارشت تهارش الكلاب واقترس بعضها بعضاً فعل الذئاب وإذا همست في آذان القادة السياسيين وأساقفة الكنائس الروحانيين ففسدوا رشدهم وجن جنونهم

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذي أحدثته الفطرة بين الإنسان والانسان لا يرفأه المنطق المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خاتفا فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رماذها ولا يزال فيها رجال تتجاوز جنونهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم تحرا ، لا يخفى على الخبير المتفكرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداوية المستقبل ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجورا وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويرضى لها العالم ، ولكني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقتض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، إني أحذركم وأندركم من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، حامى الدمار حارس الذم والأعراض ، دين الكرامة والشرف دين الأمانة والعفاف

دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ويعو كل أثر من آثار استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أمواتهم ، آمناء لله وكلاء على الأموال ، وأبى ثورة أعظم وأبى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للبلوك والسلاطين .

فابدلوا جهديكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس وليهنيكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه فغير لنا أن يظل مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلائع العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطل سحره ، اشغلوه يا إخواني عن الجهد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره ، زهدنا فيه واستخفافنا لخطره ، يا ويلتنا ويا شقوتنا

لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه ، (١)

مؤامرة أنصار الباطل ضد السلم :

وفعلنا نجح شياطين الإنس والجن في مهمتهم وكانت مؤامرة مبيتة ضد الإسلام وخطوة منظمة ضد أجيال القادمة فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجرة الإيمانية التي لا تزال كامنة في الرماد وتجريد المسلمين في بلاد العرب والمسلمين من الحمية الدينية والعاطفة الإسلامية التي تحمل أعمالها على التضحية والجهاد وتحمل الشدائد والمكاره في سبيل الله والثورة على الباطل وقد أوصى بذلك إبليس أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها « وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين » ، « إن هذا المجاهد الذي يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً ، أخرجوا روح محمد صلى الله عليه وسلم من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعاً من الفقر شديد الخوف من الموت ، وأشغوا العرب بالافكار الغربية وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني تسمكشون بذلك من

(١) « ماذا خسر العالم بالمخاطب المسلمين » ص ٢٣٠ - ٢٢٢

إجلال الإسلام من الحجاز واليمن ، إن في الأفغان غيرة دنيئة وعلاجها أن تنفخ العالم الديني من جبالها وسهولها ، وكان من أقرب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليم الذي يجرد الشباب المسلم من الروح الديني والعواطف الإسلامية والعقلية الإسلامية وينشيء فيه طبيعة النفعية والأبيقورية وطبيعة التهام الحياة وانتهاج المسرات وتقديس المادة ورجاها وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك وضعف الثقة بالنفس والشك في الدين ، لذلك يرى شاعر هندي آخر اسمه أكبر الاله آبادي أن فرعون مصر أخطأ الرمية وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني اسرائيل فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرق سافرة ألصقت به العار وأثارت عليه اللعنات ، فكان يقتل أبنائهم ويستحي نساءهم ليا من ثورة بني اسرائيل وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنه رزق شيئاً من الابتكار وبعد النظر ودقة التفكير لا كفى بتأسيس كلية لبني اسرائيل يدعى الجيل الاسرائيلي الجديد كما يشاء ويسبك العقول والطبائع سبكا جديدا لا يدخ إمكانا لنشأ شباب مثقف يشعر الشعور الديني ويحمل العاطفة الدينية والغيرة القومية ويهتم بشيء آخر غير الوظائف والمناصب والمراتب

والدرجات ، لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى عن هذه المتاعب وسوء الأحداث ووصل إلى غايته في سهولة ويسر وهدوء وسلام وزيادة على ذلك اشتهر في الناس بلقب «حامي العلم» و «مربي الجيل» ، ونشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجح أنصار الباطل في اضعاف الروح الديني :

يرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم وجهودهم ، فضعف الشعور الديني في بلاد الإسلام وخمدت جذوة الإيمان وفقدت البطولة الإسلامية وروح الجهاد وفشت النفعية وجمحت المادية ، يقول الشاعر وقد ساح في كثير من البلاد الإسلامية والعربية ، لقد تجولت في بلاد العرب والعجم فرأيت خلفاء أبي لبك كثيرين تفيض بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد صلى الله عليه وسلم نادرا كالكبريت الأحمر والعنقاء المغرب ، ويقول في قصيدة قالها في فلسطين ، لا أرى في بلاد العرب تلك الموعظة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم تلك السموات الفكرية الذي كان يمتاز به العجم ، لا تزال دجلة والفرات

منطشتين إلى بطل من أبطال الإسلام ولكني لا أرى
في قافلة الحجاز أحدا يقوم مقام الحسين .

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذي وقع في حياة المسلمين
ويتألم لذلك أشد الألم ويبكي دما وشعره يفيض بهذه
الآثام والدموع ، يقول في أبيات « يا وارث التوحيد
الإسلامي لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر والعمل المسخر
القاهر ، لقد كنت يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحد
ارتعد فرقا منك وطار قلبه شعاعاً وقد أصبحت اليوم
كسائر الناس لا تحمل روحاً ولا تجذب نفوساً ، ويقول
في «وضع آخر» إن السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض
لقد طال عهد المحراب بها واشتاق إليها المسجد كما تشتاق
الأرض الجديدة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع في مصر ولا في
طرابلس ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأسس ،
ويقول في بيت « لقد فقد المسلم لوعة القلب وانطفأت نار
الحياة فيه فأصبح ركماً من تراب ، ويقول « لم أر في محيطك
أيها المسلم نواوة الحياة وقد بحثت عنها موجة موجة وتفقدتها
صدقة صدقة ، ويرى محمد إقبال أن مصدر هذا التدهور
هو القلب الذي خوى من الإيمان وشعلة الحياة يقول

« لقد فقد المسلمون سورة الحب الصادق ونزفهم دم الحياة
فأصبحوا هيكلاً من عظام لا روح فيه ولا دم ، السقفوف
زائغة والقلوب مضطربة والسجدة لالدة فيها ، ذلك لأن القلب
خال من الحنان .

البقعة الرسومية :

هذا ولكن محمد إقبال يعتقد أن الصدمات السياسية
التي أصيب بها العالم الإسلامي أفضت مضجع المسلمين
وأيقظتهم ودب فيهم ديب الحياة ، يقول في قصيدته البديعة
« طلوع الإسلام ، « إذا رأيت النجوم شاحبة ، تذكره تخفق
فأعلم أن الفجر قريب ، هاهي الشمس قد ذرقتها من
الافق وولى الليل على أذاره ، إن عاصفة الغرب قد أعادت
المسلم إلى الإسلام فانما تتكون الآلى في البحر المتلاطم الهائج ،
لقد دب ديب الحياة في الشرق وجرى الدم الفائر في عروقه
الميتة وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابي ، أن المسلم
سيمنح من الله الأبهة التركية والذكاء الهندي والنطق العربي ،
ويقول في بيت « إن إقبال ليس يائساً من تربته الحقيرة
فإنها إذا سقيت أنت بحاصل كبير ،

المسلم هو رباني العالم الجدير :

ويرى محمد إقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ونثرت كائناتها وقد شاخت وهرمت وأينعت كالفلكهة وحان قطافها ، وأن العالم القديم الذي حوله مقامروا الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهار قريبا والانسانية تتمخض بعالم جديد ، ويعتقد محمد إقبال أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للانسانية البيت الحرام بالأمس وورث إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم في قيادة العالم وارشاده ، فمسيب محمد إقبال بهذا المسلم النائم وينشده بأنه أن يقوم ويمسح النوم من عينيه فقد ظهر الفساد في البر والبحر وعاث الأوربيون في الأرض وأفسدوا فيها بعد إصلاحها وخربوا العالم وملاؤه ظلما وظلمات ، وشرورا وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتا من بيوت الله جعلها مسجدا وطهورا وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ولكن الأوربيين قد حولوها إلى خمار ، وبيت الفسق والدخارة ومكان النهب والغارة ، وقد أن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوربيون ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ويبنى العالم من جديد .

فهرست

صفحة	الموضوع
٥	الدكتور محمد إقبال
٥	خلاصة حياته
١٧	العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال ، وآراؤه في التعليم والعلوم والجيل الجديد
١٧	المدسة الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال
٢٥	المدسة الثانية
٢٦	العامل الأول
٢٨	العامل الثاني
٢٢	العامل الثالث
٣٨	العامل الرابع
٤١	العامل الخامس
٤٣	نقده لنظام التعليم
٤٣	جنايات المدرسة
٤٧	مآخذه على التعليم
٤٩	آراؤه في العلوم والآداب
٥٤	تصوير للشباب المسلم
٥٩	الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال
٥٩	بحث عن إنسان
٦١	المسلم هو الإنسان الكامل

صفحة	الموضوع
٦١	المسلم المثالي
٦٢	المسلم له وجودان
٦٤	المسلم حتى خالد
٦٥	حقوق العالم المسلم
٦٦	مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه
٦٨	المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة
٦٩	ثبوت المؤمن بمتابعة من رسالته
٧١	المسلم لا يتعصب في الأوطان والعموم
٧٢	المسلم متعلق بأغلق الله
٧٤	المسلم كالشمس لا تمرب مطلقا
٧٦	المسلم هو المنافس الوحيد والخطر الدائم على الباطل
٨١	مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم
٨٣	نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني
٨٥	القطعة الإستراتيجية
٨٦	المسلم هو باني العالم الجديد